ونجد الشاعر العربى عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه، فقال :

وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْرِي

أقوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ (١)

والقـوم تُطلَقُ على الرجـال دون النسـاء (٢). ثم يبين لنا الحق حكمـة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة. وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه و تعالى فيهم :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

والخبـال مرض عقـلى ينشـأ معه اختـلال مـوازين الفكر ، فتقول : فلان مخبـول، أى : أنه يحـكم فى القضـايا بدون عقل ، إذن فقـوله تعـالى : ﴿ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أى : أنهم لن يكونوا إلا مصـدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم . فكأنهم عين

(١) البيت من قول زهير بن أبى سلمى
(٢) ويُقـوِّى هـذا قـوله تعـالى : ﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : ١١] فلو كانت النساء من القوم لم يقل : ﴿ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾ .

عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أى : أنهم كانوا سيُحْدِثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفساد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون فى الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة "فيكُم" اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمظروف، قال الحق:

﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ (٧١) ﴾ [طه]

هل كان فرعون سيصلب السحرة فى داخل الجذوع أم على الجذوع ؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه فى أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله فى أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى «فى» الظرفية ؛ ومعنى آخر فى استخدام حرف "على" . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : «لأصلبنكم على جذوع النخل» ، فإن لها معنى أن يكون الصَّلْب على الجذع ؛ أى: أنه صَلْبٌ عادى ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ معناه : أن

عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب فى المصلوب فيه ، أى : أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل فى جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعة واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

أى : أن سرعتنا فى العمل الصالح تنتهى بنا إلى المغفرة ، إذن : فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن فى المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ .. (٩٠) ﴾ [الأنبياء]

ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أى سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شىء كأنه لم يكن فى بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ فى الخير ، فكأنك فى الخير أولاً ثم تزيد فى فعل الخير .

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ نجد أن «أوضع» تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : "أوضعت الدابة" ؛ أى مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة فى نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى

حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهم يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة فى الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطْئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولابد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء فى الوسوسة ؛ وسرعة فى الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل فى عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أى : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية فى أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزىء به ، وهذا أوضح ما يكون فى مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون فى هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجِدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقة ؛ لكى يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه، ويدَّعُون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ،وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغرى الناس بالسرقة ، والمرتشى يحاول نشر الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجِدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السىء ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال: حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركى الصلاة، تجدهم يحاولون السخرية منه ، فهذا يقول له : خذنى على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً : يجعلنا الله من بركاتك. ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد فى الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب فى الآخرة ، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله فى الدنيا؛ فيثيبهم الله فى الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن: فقوله تعالى :﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي: إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى إيمانكم، يحاولون أن يفتنوكم فى دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ، تماماً كأنماط السلوك التى بيَّناها من قبل .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيمانى لن يكون فى مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين ،ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وسمعتُ لفلان، أي: سمعتْ أذنى ما

قاله، وسمعت من فلان، أى: لصالح شخص آخر ، أى :من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتى بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين مما يُحدث بلبلة فى فكرهم ، ومن هؤلاء المبلبلين للأفكار جواسيس لهم ينقلون إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا فى نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت "اللام" فاصلة بين "سمعت له" أو "سمعت من غيره لصالحه" ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) ﴾ [النساء]

فنجد السطحى التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم، أو أن يزدادوا فى إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيمًا ، أى: لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم.

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ لأن الذى كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التى ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من: مؤامرات على الإسلام، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين؛ والتآمر على رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ له ﷺ دليل على تلك الوقائع السابقة(١). أما قوله تعالى ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾. فالتقليب: هو جعل أسفل الشيء عاليه، وعاليه أسفله؛ حتى لا يستتر منه شيء. وهذا مظهر نراه فى السوق؛ عندما تذهب عند الفاكهى وتجد ما هو موجود فى أعلى الفاكهة مُنْتقًى بعناية، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الردىء الذى أخفاه أسفل القفص. وهكذا يأتى لك بالأسفل أو بالشيء الردىء المكشوف عورته. والذى لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك (٢).

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء. والمثال الواضح: عندما تآمرت قريش على رسول الله ﷺ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضربة رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل.

لكن الحق سبحانه يأتى إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين، ولذلك يقول جل جلاله:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١). أما القرطبى فقد قال فى تفسير الآية (٤/ ٣٠٨٣): «أى: لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم، وينزل الوحى بما سيفعلونه. وقال ابن جريج: أراد اثنى عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبى ﷺ».

(٢) وقد حرم رسول الله ﷺ هذا، وذلك أنه ﷺ مَرَّ على صُبْرة طعام فأدخل يده فيها. فنالت أصابعه بللاً. فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منى» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤٢) والترمذى فى سننه (١٣١٥) عن أبى هريرة. قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتآمر على رسول الله ﷺ ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدى إلى هجرته ﷺ من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً فى إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لايرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلابد أن ينصره [(١)] ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة ؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً فى غزوة أحد ، عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه [(٢)] ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ﷺ ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

(١) وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] .

(٢) عن البراء بن عازب قال : « لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة ، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لاتبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلاتبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » ولكنهم خالفوه ﷺ فوقع سبعون قتيلاً فى المسلمين . والحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٩٤) .

ويوم حنين، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أنْ أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك إذا رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين (١٤٦) وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (٤٩) ﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر -والعياذ بالله- ؟ إن كل ذلك- وغيره - تجوز فيه الفتنة . والقول: ﴿ائذن لي ولا تفتني﴾ ظاهره أنه أمر ،

ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر، بل هو دعاء أو رجاء، وإن جاء من المساوى يقال: «مساو له» ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل.

وكان الجد بن قيس -وهو من الأنصار- قد جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: ائذن لى ولا تفتنى ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع فى فتنة مخالفة أوامر رسول الله ﷺ (١) .

وقيل: إن هذا الأنصارى لم يكن له جَلَدٌ (٢) على الحرب وشدائدها . وقيل: إنه كان على ولَع بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشى أن يُفتَنَ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه فى الفتنة فعلاً؛ لذلك جاء قول الحق : ﴿ أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ . وكان هذا الأنصارى سميناً، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنارأحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى آية أخرى قال سبحانه :

(١) انظر : أسباب النزول للسيوطى (ص٩٤) . وابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٦٢) . وقد كان الجد بن قيس من أشراف بنى سلمة .
(٢) الجَلَد : الشدة والقوة والصبر على القتال .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فجحيم النار أشد قسوة وحرارة من نار القتال [1] ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهى تحيط بالكافرين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحاً فى إظهار الكراهية التى تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إن تُصبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هى: الانتصار فى الحرب ، والنصر فى الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر فى حصول المؤمنين على الغنائم، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق فى الغنائم . وفى هذه الحالة يقولون: يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

(١) وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزِموا فى الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقين يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً فى الفكر واحتطْنا للأمر، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة فى الحرب تكون في: الأرواح، والرجال والمال، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة، وهى هنا الهزيمة فى الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم لِيُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أى نصر للإيمان يحزن المنافقين فى نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تحْزنهم الحسنة التى ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد ﷺ الغيب الذى فى قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك . ومع هذا أضمروا النفاق فى قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تَحل بمحمد ﷺ وصحبه .

ويرد الحق سبحانه وتعالى عليهم :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتى منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هى التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير فهو حسنة ، وإن جاء بشَرٍّ فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ،ومصيبة ليس فيها غريم ، فإن اعتدى علىّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمى ، وتتولد فى قلبى حفيظة[1] عليه ، وغيظ منه ، وأرغب فى أن أرد عليه وأثأر لنفسى منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمى فى المرض ؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان ؛ نوع لى فيه غريم ، ونوع لا يوجد لى غريم فيه ؛ النوع الأول الذى يكون لى فيه غريم يمتلىء قلبى عليه بالحقد ، ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى فى عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هى العفو ، والثالثة هى أن تحسن ؛ فترتقى إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

(١) حفيظة : غضب وضغينة .

وكذلك يقول الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

أى : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التى تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التى ليس للإنسان فيها غريم فهى لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا اللون من المصائب :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم «لام التوكيد» التى جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث فى النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أى أن الغيظ موجود فى القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقى المؤمن فى انفعاله الإيمانى ، فيأتى العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهى أن يُخرِجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتى المرحلة الثالثة :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

أى : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزى عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل - ولله المثل الأعلى - هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثانى ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لابد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُربِّتُ على كتفه وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشترى له شيئاً لترضيه ، أى أنك تحسن إليه .

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف فى صف المظلوم . إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق فى هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم فى هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذى حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .

والحق هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتى المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لى شيء أكرهه؛ ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فإن ضربنى أبى لأننى أهمل مذاكرتى ، أيكون ذلك عقاباً لى أم لصالحى ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذى سوف تحققه فى الحياة إن ذاكرت، فهذا العقاب لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لابد أن نأخذ أحداث الله فى كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا فى معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير فى دينهم ؛ وإلى أنهم لابد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها؛ فلهذا انهزموا .

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ- وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم - يعاقب المخطىء منهم، وفى هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شىء مكتوب لنا لا علينا ، الذى كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

إذن: فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه، فالإنسان لا يربى إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد فى فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛وبينهم ابنه، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم، فإذا أصابت المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ؛فهذا من غبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير[1] ، ومن هنا كانت الآية

(١) عن صهيب الرومى قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٩٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٥٤) .

الكريمة ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه : ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ؛ لأن الله الذي آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطي الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً . وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يخطيء المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد: إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف في الإيمان وبالتالي فإنه ضعف في التوكل . ولكن قل: إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويُصوِّبه لك ، فثقْ به سبحانه وتوكل عليه.

وعلى سبيل المثال: لنفترض أن إنساناً اتكل عليك في أمر من الأمور، ثم أخطأتَ أنت في هذا الأمر ، لا بد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفي هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة

بالثقة فى هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ،وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل فى محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتى آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتى دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك ناتج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛ لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحى الذى لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يكْرِهُك أو يُذلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون فى مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتى قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتى قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ **لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و"لنا" تفيد الملكية ؛ إما: تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا.

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿**فَتَرَبَّصُوا**﴾ أى: تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب فى الدنيا وفى الآخرة .وأسباب العذاب مجتمعة لكم فى الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم فى الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون فى صالحنا نحن.

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتى إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزى دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بحسم مسألة الخيانة العظمى وهى الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أى عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبطُ أيَّ عمل، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً فى الدنيا ، ولكن ليس لهم فى الآخرة إلا النار[1] ، ويقول:

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة ، يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا ،حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٠٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٣) .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

إذن: فشرط تقبُّل الله لأى عمل إنما يأتى بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس فى بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان فى بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

[النور]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر فى قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

[إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه فى قول الحق :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]